الفصل الرَّابع

الضَّرورة: هل تضمن الأسباب نتائجها؟

توجد فكرة شائعة عن السَّببيَّة مُغايرة لنظريَّة هيوم، ومفادها أنَّه عندما تقع أحداث سببيَّة فالأثر ليس مجرَّد احتمال وسط مجموعة من الاحتمالات، وإنَّما يوجد سبب محدَّد نتج منه هذا الأثر دون غيره. وعليه، يجب أنْ يذوب السُّكر عندما يوضع في الشَّاي السَّاخن، ولا بدَّ أنْ تتحرَّك الكرة عند ركلها، وعندما يوجد طرازٌ جينيٌّ معيَّن في كائن حي، فيجب أنْ يتطوَّر بطريقة محدَّدة.

إنَّ اعتقادَ بعض الناس أنَّ نقصًا يعتري موضوع الانتظام في السَّببيَّة -وإنْ كان مصحوبًا بالتجاور والأفضليَّة الزمنيَّة- ما هو إلا إحساسٌ بضرورة الأسباب؛ فالأثر لم يقع صدفةً بالنظر إلى وقوع السَّبب، بل إنَّ السَّبب يلزم لوقوع الأثر. وتعوِّل فلسفة هيوم من وجهة نظر الكثيرين على الاحتمالات بصورة كبيرة؛ فها هي فسيفساء هيوم تقترح إمكانيَّة أنْ يكون أيُّ شيء تابعًا لأيِّ شيء آخر، فيما

يرفض معارضو هيوم هذه الفكرة، ويجادلون بخصوص واقعيَّة السَّـببيَّة باندفاع أكثر منه؛ فالسَّببيَّة بالنسبة إليهم تعني أنْ تضمن الأسباب حصول آثارها.

مـاذا نعني بالضَّرورة والاحتمال؟ للفلاسـفة طرقهم المختلفة في وضع تصوُّر بخصوص صياغـة هذيـن المفهومين، فهـم يعنون بمفهـوم الضَّرورة أنَّ شـيئًا ما يترتَّـب عليـه حتمًا حالـة معيَّنة، ويعنون بالاحتمال أنَّ شـيئًا ما قد يكون صحيحًا، وقـد لا يكـون صحيحًا. قـد يكون ذلك صحيحًـا في بعض العوالم وليس كلها؛ فقد نعتقـد بضـرورة أنْ يكـون حاصـل جمـع (2 + 2 = 4)، ولكـن أنْ تكون أوسـلو هي عاصمة النرويج فهذا احتمال؛ لأنَّ النرويج قد تختار مدينة ترومس عاصمةً لها، ولكن من غير المحتمل ألا يساوي حاصل جمع 2 وَ 2 4.

توجـد حـالات أخـرى مثيرة للجدل، فهـل بالضَّـرورة أنْ يكون المـاء (H_2O) مركبًا من عنصري الهيدروجين والأكسـجين؟ وأنْ تكون سـرعة الضوء مئة وستة وثمانين ألفَ ميل في الثانية عبر الفضاء؟ وأنْ تكون الإلكترونات سـالبة الشـحنة، أو أنّها كلها مجرد احتمالات؟

يمكننـا أنْ نجـد أسـبابًا أيضًا ضمن هذه النقاشـات؛ فهـل بالضَّرورة، أو من المُحتمل أنْ يذوب السُّـكر في الماء؟ أو أنْ تشـفيكَ أقراصُ الدَّواء من الصُّداع؟ أو أنْ يشتعل عود الثقاب عند احتكاكه بسطح خشن؟

مسألة الضَّرورة

عـدَّ هيـوم الضَّـرورة عنصـرًا رابعًـا محتمـلًا في فكـرة السَّـببيَّة إضافـةً إلى الأفـكار الثـلاث التـي ناقشـناها سـابقًا، وهـي: الانتظـام، والأسـبقيَّة الزمنيَّـة، والتجاورالمـكانيُّ؛ فقـد أقرَّ بـأنَّ الضَّرورة كانت هي الفهم الشـائع للسَّـببيَّة، وقد خلُص فلسفيًّا إلى أنْ لا مكان لها.

جادل هيوم بأنَّ وجود مثال مُفرد عن السَّببيَّة لا يقدِّم لنا أيَّ دليل على الضَّرورة، وكانت وجهة نظره تتمثَّل في أنَّ ما نراه هو تسلسل للأحداث؛ أيْ إنَّ حدثًا يتبع آخر، وتتبلور فكرتنا عن السَّببيَّة من خلال رؤيتنا النمط المتكرِّر نفسه للأحداث المُتسَلسَلة، ما يدفعنا للتوقُّع بأنَّ الحالات الأخرى ستكون مماثلة لما نراه، لكن ليس بالضَّرورة أنْ يكون الأمر كذلك، فإنْ لم تظهر الضَّرورة في أحد الأحداث، فلا يمكن أنْ تظهر في أحداث أخرى مماثلة، ولا يتضمَّن كلٌّ منها سوى الاحتمال، ولا يمكن للاحتمالات المتعدِّدة أنْ تقودنا إلى الضَّرورة. يبدو الأمر كمن يأمل أنْ تؤدِّي إضافة الرقم صفر مرارًا وتكرارًا إلى الحصول على الرقم واحد!

وبالعودة إلى مثال عود الثقاب، يشير هيوم إلى أنَّنا نراه يحتكُّ بسطح ما ويشتعل، ولكن من المحتمل ألا يشتعل عود الثقاب عند احتكاكه بذلك السَّطح، بل يتلاشى بدلًا من ذلك. وعليه، نرى العود يشتعل عند الاحتكاك، لكن ليس بالضَّرورة أن يشتعل عند احتكاكه، وعندما نرى المزيد من عيدان الثقاب تشتعل كلما احتكت بأسطحها، فهذا يعني أنَّنا نرى المزيد من الأمثلة على هذه الحالة، ولا يفوتنا القول إنَّهُ عندما لا يؤدِّي احتكاك عود الثقاب إلى اشتعاله في كلِّ مرَّة، فهذا يعني أنْ لا دليل على وجود الضَّرورة في السَّببيَّة.

توجد الضَّرورة الحقيقيَّة التي يُعنى بها مؤيدو هيوم فقط في علاقات الأفكار؛ فمثلًا (2 + 2 = 4) هي علاقة ضروريَّة؛ لأنَّ حقيقتها متضمَّنة في معاني الأفكار المتعلقة بها. وعلى نحو مشابه، يمكننا القول: إنَّ يوم الغد هو الخميس إذا كان اليوم هو الأربعاء، لكن ضرورة هذه الحقيقة مُتضمَّنةٌ بهيئة كاملة في الكلمات، فلا توجد ضرورة دنيويَّة مُلزِمة للمستقبل.

قهريَّة فلسفية

عارض هيوم وجهة النظر التي تبناها كل من أرسطو، وباروخ سبينوزا (1632–1677 م) هذا الأخير الذي قال عن السَّببيَّة: «ينتج الأثر بالضرورة عن سبب محدد». (Spinoza, 1677, Ethics I, axiom III)

تعدُّ مجادلة هيوم تحدِّيًا قويًّا لهذه الفكرة، ولكن ما تزال وجهة نظر مؤيِّدي فكرة الضَّرورة في الميتافيزيقيا المعاصِرة تطفو على السطح، فيتعامل بعض العلماء مع قوانين الطبيعة بوصفها مسائل متعلقة بالضَّرورة المطلقة، وهم يعتقدون أنَّ السَّلاسل السَّببيَّة مُلزَمة بها.

تكمن جماليَّة فكرة الضَّرورة في أنّها تأخذ بالحُسْبان الإحساس بالقهريَّة الكامنة في فكرة السَّببيَّة فيما ترى وجهة نظر هيوم القائمة على الاحتمال أنَّ الأثر قد يقع، أو قد لا يقع، ولا يجبره شيء على الوقوع. وتُظهر كثير من الحالات وجود ضرورة حقيقيَّة في آثار الأحداث؛ ومثال ذلك موت كل شخص قُطعت رأسه في أثناء الثورة الفرنسيَّة، فهل يمكننا الاعتقاد أنَّ الموضوع ليس سوى ترابط مستمر، أو أنَّه مجرَّد مسألةُ احتمال؟ أو هل يجب علينا القول بالضَّرورة؟

وبعد هذه المناقشة المعمَّقة، ليس من الممكن أنْ يبقى شخص ما على قيد الحياة بعد فصل رأسه عن جسده.

سيعيد الأشخاص الذينَ يؤمنون بحقيقة السَّببيَّة إثبات ما حاول هيوم نقضه. من الطبيعيِّ التفكير بأنَّ مؤيِّدي فكرة الانتظام في العالم يملكون مبرِّرًا، لذلك فلا بدَّ من وجود سبب يجعل الإنسان يموت عند قطع رأسه.

وإذا كان ثمَّة ضرورة في الموضوع، فسيتولَّد لدينا الترابط المستمرُّ بلا شكٍّ، وبهذا يكون الانتظام دليلًا على السَّببيَّة، وهي طريقة جيدة لتعريف الانتظام.

تتجلَّى فكرة الضّرورة، وتبدو حاضرة بقوَّة في مثال قطع الرأس؛ فمؤيِّدو الفكرة سيقولون: إنَّ الأمر ينطبق على حالات السَّببيَّة الأخرى كلها، ولا شكَّ أنَّه من الصَّعب أنْ نتصوَّر بقاء شخص من دون رأس على قيد الحياة، بينما يبدو من الأسهل أنْ نتصوَّر وجود السُّكر ضمن سائل ما دون أنْ يذوب، ألا يعود هذا إلى جهلنا النّسبيِّ بالأسباب الحقيقيَّة؟ لو كنَّا نمتلك معلومات كافية عن الموضوع لتوقفنا عن النقاش؛ فنحن سنرى أنَّ حتميَّة ذوبان السُّكر في السَّائل لا تقلُّ عن حتميَّة موت الشخص الذي قطعت رأسه.

يبقي تحدِّي هيوم إمكانيَّة معرفة وجود ضرورة كامنة في أي حالة سببيَّة من خلال خبراتنا، وقد يجيب مؤيِّدو فكرة الضَّرورة بأنَّ مشروع هيوم التجريبيَّ يضيِّق الخناق على ما يُعدُّ دليلًا مقبولًا، فالانتظام قد لا يستلزم وجود أسباب قويَّة لكي يعمل، وإنَّما قد تكون السَّببيَّة فرضيَّة مقبولة لتفسير الانتظامات الكثيرة جدًّا في الطبيعة، وقد نعتقد أنَّ هيوم وضع معايير متقدِّمة جدًّا للقبول بالأدلَّة على ضرورة الأسباب ليخدم نظريَّته الخاصَّة.

قد يشير الجبريُّون كذلك إلى أنَّ شروحاتهم تتميَّز بقدرتها على تفسير المشكلات التي تقيِّد مؤيِّدي هيوم إضافة إلى شرحها.

لم يتمكن هيوم من التمييز بين الصُّدفة والارتباطات المستمرَّة للسَّببيَّة الحقيقيَّة، لكن يمكن للواقعيَّة السَّببيَّة أنْ تحقِّق هذا التمييز، عندها ستكون بعض الانتظامات صُدفًا مَحْضة، بينما تكون الأخرى سببيَّة بالضرورة، وإذا كانت السَّببيَّة شيئًا حقيقيًّا، فمن غير المُهمِّ أنْ يكون لها عديدٌ من الأمثلة؛ فحقيقة كونها سببيِّة لن تتوقف على عدد الأمثلة، ولا على تقديم وجهة نظر مرتبطة بالعلاقات، وهكذا يمكن استيعاب أيِّ حدس فرديٍّ. وعليه، لن تتعلق مسألة تسبُّب الحدث (أ) بالحدث (ب) بأحداث في أمكنة وأزمنة أخرى، وإنَّما تتعلق فيما إذا كان الحدث (أ) ضروريًّا لوقوع الحدث (ب).

يوجد تباين في وجهة النظر الجبريَّة التي تُقيم وزنًا لتعقيد الحالات السَّببيّة، ولا شكّ في أنَّ التعقيد سمة متفشيَّة في العمليات السَّببيّة، إذ يحاول الفلاسفة دائمًا إيجاز الموضوع بعيدًا عن التفاصيل لينتهي النقاش وكأنَّه يوجد سببٌ واحدٌ لكلِّ أثر، ربما يكون هذا إيجازًا مُخلًّا، لكن ما من شيء سنخسره في حال تجاهلنا تعقيدات السَّببيّة.

لاحظ جون ماكي (1917-1981م) وجود أسباب عدَّة تؤثر في كل نتيجة؛ لنفرض أنَّ شخصًا ما أسقط سيجارة في المنزل، ومن ثم بدأ المنزل بالاحتراق. إنَّ المنزل لا يحترق بسبب سقوط السِّيجارة على أرضيَّته وحسب، فلا بدَّ من وجود مواد قابلة للاشتعال كالأثاث، وتوافر الأكسجين الذي يتيح اشتعال اللهب، فالسِّيجارة التي سقطت لم تكن كافية وحدها لكي تُسبِّب الحريق، لكنها بالتأكيد كانت سببًا أساسيًّا بين مجموعة من الأسباب، وبمعنًى آخر ما كان الحريق ليحدث دون السِّيجارة.

ومع أنَّ مجموعة العوامل السَّابقة تكفي لاشتعال الحريق، فإنَّها ليست ضروريَّة له؛ فقد ينشبُ الحريق بطريقة أخرى كحدوث تماسٍّ كهربائيٍّ مثلًا، وبهذا لم تكن مجموعة العوامل ضروريَّةً، لكنها مع ذلك كافية لاشتعال الحريق.

ويمكننا تحديد سبب الحريق وفق العلاقة الآتية: «يُعدُّ أيُّ سببٍ جزءًا غير كافٍ، لكنَّه ضرورة من شرط غير ضروريٍّ يكفي لوقوع الأثر». ومن المناسب أن ندعو ذلك **بشرط إينوس**: Mackie، The Cement of the Universe ، 1980: 62.

نحن مدينون لشرط إينوس في تعرُّفنا التعقيدات السَّببيّة التي سنعود للحديث عنها لاحقًا، لكن بإمكاننا أنْ نصنِّفها بوصفها صيغة متطوِّرة للجبريَّة أيضًا، وعندما نقول: إنَّ (س) هي مجموعة من الأسباب الكافية لوقوع أثر ما،

فمـا هـي إلا طريقـة أخرى للقول: إنَّ (س) يسـتلزم وقـوع هذا الأثـر، والأمر في الحالَيْن مؤدَّاه واحد وهو: إذا وقع (س)، فلا بُدَّ من وقوع أثره.

الإرادة الحُرَّة

نولي السَّببيّة هذه الأهميَّة؛ لأنها تتعلق بالوكالة البشريَّة*، فعندما نقوم بشيء ما نتسـبَّب بوقوع أحداث معينة، إضافة إلى أنَّنا نبدع سلاسـل سـببيَّة جديدة، أو قد يحلو لنا الاعتقاد بذلك، ليسـت السَّـببيّة مشكلة نظريَّة مُجرَّدة تهمُّ الفلاسفة وحدهـم، ولا تكمـن أهميَّتها فقط في أنّ بعض الأحـداث المُنظَّمة تعتمد عليها، بل تتأتَّى أهميَّتها من الرأي القائل: إذا كانت السُّـلطة البشـريَّة هي السَّـببيّة، فتكون القضيَّة عندها ذات أهميَّة ملحَّة لكلِّ كائن يقوم بأي أمر في الحياة.

يوجـد نـوع من المعارضـة لنظرة أتبـاع الجبريَّة إلى السَّـببيّة ؛لأنّهـا قد تهدِّد إرادتنـا الحـرَّة، فإذا كانت الأسـباب توجب وقـوع آثارها، فكيـف يمكننا الهروب من الحتميَّة في هذا العالم؟ ألنْ يكون كلُّ شـيء مُقرَّرًا سـلفًا؟ وبهذا يكون الجنس البشريُّ مجرَّد عبدٍ للضَّرورة كأيِّ شيء آخر (تُعرف وجهة النظر هذه بالحتميَّة).

تحتـاج فكـرة الحتميَّة إلى شـرح أكثر؛ لنفترض أنَّ كلَّ حدث يقع يتسـبَّب به حدث آخر، ولنفترض أيضًا أنَّ الجنس البشـريَّ خاضع بالدَّرجة ذاتها للسَّـببيَّة كأيِّ شـيء آخر، تتحكم الأسـباب فينا، ومن ثمَّ تجبرنا على القيام بأمور معيَّنة، فلـو قرَّرنا القيام بأمر ما، فيجب أن توجد أسـباب أخـرى تتطلب هذا الأمر، وإنْ بـدا الأمـر لنا طبيعيًّـا فما نعدُّه تأثيرًا شـخصيًّا من قِبلنا هو بحـدِّ ذاته جزء من سلسلة سببيَّة مقرَّرة سلفًا لا يمكننا تجنُّبها.

* تعنـي (agency) في الفلسـفة، وعلـم النفس: قـدرة الوكيـل- وهـو شـخص أو إي كائـن حـي عمومًـا- علـى التصـرُّف، واتخـاذ القـرارات، والبدائـل بحريَّـة، وفرضهـا علـى العـالم المحيـط بـه، والتأثـير فيـه. (المُترجمـة).

إلى أيِّ حدٍّ نحن أحرار؟

تبدو الحتميَّة تهديدًا لإرادتنا الحُرَّة؛ فقد يرغب شخص ما بالخروج، وشراء الشوكولاته، ولكن إذا اتَّخذَ قراره هذا بسبب حدث آخر خارج عن إرادته – وهي الأسباب التي تستلزم هذا القرار–فبأيِّ معنًى سيكون هذا القرار حرًّا؟

يعتقد بعضهم بوجود طريقة خارج هذه المشكلة للتمييز بين الأحداث السَّببيّة العاديَّة، ونوع السَّببيّة الخاضع لتأثير عوامل أخرى، ويمكننا أنْ ندعو الأخيرة بوكيلٍ، أوعامل سببيٍّ.(5)

لو كانت عقولنا أرواحًا وأشباحًا، فلن تكون محدودة بالسَّببيَّة الانتظاميَّة للعالَم الفيزيائيِّ الصَّرف، ولكنَّ تصوُّرًا مثل هذا لا يزال يواجه مشكلة؛ فأجسادُنا على الأقلِّ مكوِّنات فيزيائيَّة، وسيبدو من الصعب تفسير إمكانيَّة إفلاتها من حتميَّة الأحداث السَّببيّة القياسيَّة، فما الحاجة إلى استعمال عقلك عند اتخاذ القرارات ما دامت أفعال جسدك مُحدَّدة بالسَّببيَّة؟

ومع ذلك، يتعيَّن علينا القول: إنَّ النَّاس جميعهم لا يوافقون على فكرة الحتميَّة، ما يسمح بوجود بعض الاحتمال في هذا العالم. ربَّما تكون بعض الأحداث غير سببيَّة، أو من الممكن- وفق إصرار أنصار هيوم- ألا تنطوي السَّببيّة على ضرورة، ولكنها تفسح المجال للاحتمال.

هنا لدينا مشكلة أساسيَّة؛ فالضَّرورة تبدو مناقضة للإرادة الحُرَّة، والأمر ذاته بالنسبة إلى الاحتمال أيضًا؛ لنفرض أنّك تقوم بعمل غير سببيٍّ، أو يحتوي على عناصر احتماليَّة كالصُّدفة والعشوائيَّة، فهذا لن يجعلك حُرًّا، بل على العكس سيُفقدكَ التحكُّم في النفس، وستصبح الآن رهينةً للصدفة بدلًا من أنْ تكون رهينة للضَّرورة، فأنت لا تريد للقرارات أن تبقى في رأسك بوصفها مسألة احتماليَّة، بل تريد أنْ تحتفظ بسُلطتك على قراراتك حتى لا تبدو حُرَّ الإرادة إذا كان كلُّ شيء محكومًا بالضَّرورة، ولكن لا إرادة حُرَّة إذا كنت محكومًا بالاحتمال.

قد يبدو من السُّهولة بمكان أنْ نيْأس من الإرادة الحُرَّة للإنسان عند هذه النقطة، لكنَّنا لا نريد ذلك، فما تزال مُحاكمتنا للموضوع مرتبطة بفهم مُحدَّد للسَّببيَّة، ولم نستكمل بحثنا في النظريات كلها بعد، فمسألة الإرادة الحُرَّة

ستكشف لنا أنَّ قيمة الرِّهان كبيرة، وإذا كانت نظريَّتنا بخصوص السَّببيّة تجبرنا على اليأس من فكرة الإرادة الحُرَّة، فربَّما لعيب ما يعتري هذه النظريَّة.

التَّداخل النَّاقص والتَّداخل الإضافيُّ

مع شعورنا بالحاجة إلى وجود رابط سببيٍّ أقوى من الترابط المستمرِّ- وكذلك الحاجة إلى شيء بعيد عن نظريَّة هيوم - فتوجد أسبابٌ تدعو لمزيد من البحث في الضَّرورة.

يدرك أيُّ شخص حكَّ عود ثقاب احتماليّة أنَّ العود لن يشتعل، وفي بعض الأحيان يحصل هذا الامر؛ لأنَّ العود لم يُضْرَب بالسُّرعة الكافية، أو بالطريقة الصَّحيحة، ولكن في أوقات أُخرى قد يُضرب عود الثقاب بالطَّريقة الصَّحيحة، ومع ذلك لا يشتعل؛ لنفترض أنَّ عاصفة ما تأتي في الوقت الذي يُضْرَب فيه العود الذي لم يشتعل، يبدو الأمر للوهلة الأولى وكأن السَّببيَّة تعاني فشلًا ما، ليس بسبب فقدها شرطًا من شروطها، بل لوجود شيء آخر كهبوب الرِّيح، أوالبلل. وحتى لو قمنا بحماية عود الثقاب من الرِّيح أو المطر، فقد تقف بعض العوامل الأخرى عائقًا في طريق اشتعاله.

إنَّ العالم منتظم، ويمكن التنبُّؤ بأحداثه، لكن ليس بصورة تامَّة؛ فقد يكون منتظمًا لنا بما فيه الكفاية لمعرفة ما ينبغي علينا القيام به لإنجاز أمور معيَّنة، لكنَّنا نعرف - وفقًا لخبراتنا السَّابقة - أنّه من الممكن أنْ يُخيِّب أملنا أيضًا.

يسقط أحيانًا لوح من الزُّجاج الهشِّ على الأرض، لكنَّه لا ينكسر؛ ربَّما لأنّ الزُّجاج قد سقط بطريقة معينة، فارتطم بالأرض في أقوى نقطة فيه، أو ربَّما سقط على منطقة ليِّنة من الأرض. ندرك إمكانيَّة أنْ نخطئ عند محاولتنا بناء

آليَّات موثوقة لتفسير ما حدث، لكن هذه الآليَّات يمكن أنْ تفشل في إعطاء الأثر المنتظم الذي تعطيه عادةً.

توجد طريقتان يمكن أنْ تفشل فيهما الآليَّة، أو أيٌّ من منظومة السَّببيَّة: إحداهما قد تحدث إذا فشل الجزء؛ لنفترض- مثلًا- أنَّ بُرغيًّا أفلت من آلة ما تاركًا وراءه فراغًا في الآلة، فإنَّ سلسلة الأسباب التي تسري في الآلة ستفشل عند تلك النقطة، وهذا مثال عمَّا يمكننا تسميتُه بالتَّداخل الناقص، ويُقصدُ به: انتزاعُ شيء ما من السَّبب ما يمنعه من إحداث أثره المعتاد.

أمَّا في الحال الثانية، فسنترك أجزاء الآلة كلها سليمة، ولكننا سنضيف عنصرًا آخر، ربَّما يكون البُرغيُّ مغطًى بالغبار ممَّا يتسبَّب بعُطل، وبذلك تفشل الآلة ثانية؛ ليس بسبب انتزاع شيء منها، وإنَّما بسبب إضافة شيء إليها، وهذا ما ندعوه بالتّداخل الإضافي.

تمثل إمكانيَّة التَّداخل الإضافي تهديدًا للمفهوم الجبريِّ للسَّببيَّة، وقد أدرك هيوم ذلك، فحينما نقول: إنَّ الحدث (أ) يستلزم الحدث (ب)، فهذا يعني -وفق فهمنا للضَّرورة- أنَّه حيثُ يقع الحدث (أ) يجب أنْ يقع الحدث (ب)، ويبدو هذا تابعًا لحالات أخرى من الضَّرورة.

وإذا كان اليوم هو الأربعاء، فدائمًا سيكون يوم الغد هو الخميس. وإذا كان اليوم الأربعاء في شهر يوليو، فيوم الغد سيبقى الخميس. وإذا كان اليوم الأربعاء، وباراك أوباما هو الرئيس، فيوم الغد أيضًا سيبقى الخميس، وهكذا بالنسبة إلى أيِّ شيء آخر يمكننا إضافته.

وهكذا إذا أردنا أنْ نعرف فيما إذا كان الحدث (أ) يستلزم حدثًا آخر هو(ب)، فربَّما نرغب بمعرفة إنْ كان الحدث (أ) موجودًا إضافة إلى بعض

الأشياء الأخرى، وإذا كانت (س) تمثل أيَّ شيء قد يهمُّنا معرفته في هذا الخصوص، فإنَّ الحدث (ب) سيظل موجودًا.

يمثل ما يأتي اختبارًا يمكننا الاعتماد عليه لنقرِّر فيما إذا كانت الأسباب توجب وقوع آثارها.

يقرُّ جون ستيوارت ميل (1806–1873م) بهذا في المقطع اللاحق بقوله: «هذا ما يعنيه الكُتّاب حين يعتقدونَ بأنَّ مفهوم السَّبب ينطوي على فكرة الضَّرورة، أو اللزوم؛ فإذا وجِدَ أيُّ معنًى ينتمي إلى مصطلح الضَّرورة، فسيكون اللاشرطية، إن ما هو ضروري وما ينبغي أنْ يكون، يعني ما سيكون عليه أي افتراض نضعه فيما يتعلق بالأمورالأُخرى». (Mill، A System of Logic, 1843: III، v، 6).

والآن، إذا كان بالإمكان حدوث تداخل إضافي، فإنَّ السَّببيَّة تفشل في اختبار الضَّرورة، إذْ يمكن أنْ يكون لدينا سببٌ معتادٌ لأثر مُحدَّد، فنضيف شيئًا آخر كالغبار مثلًا فلا يقع الأثر، ويمكن أنْ تفشل أيضًا؛ لأنّ شخصًا رمى مفتاح البراغي ضمن الأجزاء العاملة، ما تسبَّب بحدوث فجوة سوداء، وهو ما يُعطِّل الآليَّة السَّببيَّة، وهكذا فما نعرفه هو أنَّ العدد المحتمل للتداخلات الإضافيَّة غيرمحدود؛ لذا لا يمكننا تصنيفها جميعًا في قائمة محدودة مع أنها موجودة بالتأكيد، ففي هذه الحال، كيف يمكننا القول: إنَّ السبب استلزم الأثر؟

ولكن، هل من الصَّحيح القول: إنَّ حالات السَّببيَّة جميعها تتيح تداخلات إضافيَّة؟ ماذا عن حالة قطع الرأس؟ يبدو هذا مثالًا جيِّدًا عن الضَّرورة. هل يوجد ما يمكن إضافته، ما يسمح للشخص بالبقاء على قيد الحياة؟ هذا يعتمد على طبيعة الظروف؛ فقد لا يوجد شيء في الوقت الحاضر، لكنْ على الأقل يمكننا أنْ نتصوَّر موضوع البقاء على قيد الحياة بعد قطع الرأس، وربُّما يكون الأمر مسألة وقت إلى أن تتطوَّرالعلوم التطبيقيَّة التي ستتيح لنا ذلك.

في البرنامج التلفازيِّ فيوتشوراما (Futurama) يؤدِّي عدد من الممثلين أدوارًا مرعبة؛ رؤوسًا مقطوعة، ومحفوظة في عبوات موادَّ غذائيَّةٍ، هل يمكن الاعتقاد أنَّ هذا تداخلٌ إضافي ممكنٌ؟ وإذا كان بإمكان الرأس إرسال إشارات إلى الجسد السَّابق، فربَّما يمكنه البقاء على قيد الحياة، والتصرُّف وفق تعليماته.

قد يبدو الأمر ضربًا من الخيال العلميِّ، لكن لا يسعنا في هذا المقام إلا التذكير بذلك الزمن الذي اعتقدنا فيه أنَّ الانسان لا يمكنه البقاء على قيْد الحياة دقيقة واحدة إذا توقف قلبه عن الخفقان، بينما نشهد اليومَ عمليَّاتٍ جراحيَّةً شائعةً لزراعة القلب، لدرجة أنَّ بعض الأجساد تحتوي على أجزاء ميكانيكيَّة في داخلها. والسُّؤال المطروح الآن: هل الرَّابط بين قطع الرَّأس والموت - مع أنَّ الحالة سببيَّة واضحة- مسألة متعلقة بالضَّرورة أم لا؟

إنَّ المسألة تبدو على غير صورتها المعتادة مع أنَّ كلَّ من قُطع رأسه قد مات حتى الآن.

عمليَّة الإحداث أو الإنتاج

توجد أهميَّة كبيرة للجدال الناجم بخصوص التدخل الإضافي، حتى في الحالات التي تنجح السَّببيَّة في إحداث أثرها عادة، إلا أنَّها لم تفعل ذلك. توجد بعض الأسباب الفعليَّة لفشل السَّببيَّة في إحداث أثرها بسبب التدخل الإضافي، ولكنَّ الفشل يمكن أنْ يحدث في الحالات التي لم يكن فيها تدخُّل من هذا النوع؛ لهذا لا يوجد سبب يمكن أنْ ينتج أثره إذا أمكن لعامل الإضافي أنْ يمنع الأثر من الوقوع.

معنى ذلك بالنسبة إلى معارضي هيوم أنَّه يجب علينا التمييز بين فكرتي الإنتاج السببيِّ وجبريَّة السَّببيَّة، فقد هاجم هيوم الضَّرورة في السَّببيَّة، ووضع بدلًا منها الاحتمالية المحضة، فإذا اعتقد شخص أنَّ لديه قصورًا في فهم الترابط المستمرِّ، فهذا لا يعني أنَّه يجبُ عليه أنْ يدافع عن الترابطات الجبريَّة في الطبيعة، والمتناقضة مع فكرة هيوم بخصوص ترابط الأفكار.

قد يظنُّ أحدنا أنَّ هيومَ قد جانب الصواب، وأنَّه يوجد إحداثٌ سببيٌّ حقيقيٌّ إضافة إلى الترابط المستمرِّ، لكنْ لا يتعيَّن على الإنسان الدفاع عمَّا هاجمه؛ أعني مفهوم الجبريَّة السَّببيَّة. وقد تحدَّتْ إليزابيث أنسكومب (1919–2001م) الطَّرح القائل: إنَّ الضَّرورة كانت جزءًا من مفهومنا للسَّببيَّة، وحُجَّتها أنَّ قولنا: إنَّ الحدث (أ) تسبَّب في الحدث (ب) يختلف عن قولنا: إنَّ الحدث (أ) استلزم الحدث (ب)، لتشكل الفكرة الأخيرة بعض الطروحات الإضافيَّة.

كانت حُجَّة أنسكومب مُستندة إلى ظهور مفهوم السَّببيَّة غير الحتميَّة الذي حظي باهتمام كبير في فيزياء القرن العشرين، وقد بدا من الممكن أنْ يكون لدينا حالة سببيَّة احتماليَّة لا يمكن وصفها بأنَّها عشوائيَّة تمامًا.

قد توجد احتماليَّة محدودة بأنَّ الجُسيْمات ستتحلل بعد مُدَّة معيَّنة دون أنْ يوجد ما يجبرها على التحلل في أثناء تلك المُدَّة، ومن المحتمل أنَّها لن تتحلل، لكنَّ احتمال تحللها مع مرور الوقت مُرجَّح أكثر من عدمه؛ فقد يكون لديها توجُّه لذلك الفعل، وعندما تتحلل فلا تناقض في فكرة أنَّ ميلها للتحلل قد تسبَّب في تحللها، وإنْ كان ذلك غير مضمون؛ ولهذا يمكن أنْ يكون السَّبب هو الذي يثير احتماليَّة وقوع الأثر، وقد ينتج هذا الأثر بنجاح في بعض الأحيان دون أنْ نضمن ذلك.

إنْ كان باستطاعتنا استيعاب مفهوم السَّببيَّة غير الحتميَّة، فعندئذٍ تكون أنسكومب على حقٍّ بقولها: «إنَّ الجبريَّة ليست جزءًا من مفهوم السَّببيَّة»؛ لهذا ستكون الجبريَّة السَّببيَّة فرضيَّة مُكمِّلة للقول بوجود إنتاج سببيٍّ حقيقيٍّ، لكن حتى لو كانت الجبريَّة غير صحيحة، فهذا لا يعني أنَّ علينا القبول بالصورة الاحتماليَّة الكاملة في أفكار هيوم المختلفة، فقد توجد خيارات أُخرى.

obeikandl.com